الفصل الثانى

مهمة النقد ووظيفته

ويتضح لنا مما تقدم أن النقد الصحيح هو الذى يتصدى لعملية الخلق فى الإنتاج الفنى ، فيوضح ماهيتها ، ويفسر لنا قيمتها ، ثم يتعرض للغايات التى من أجلها وجد هذا الإنتاج . ولا تقتصر مهمة النقد على هذه النواحى بل إن وظيفته أيضاً فى نظر إليوت هى تبيان مواطن النقص أو الضعف فى العمل الفنى والإشادة بمواطن الحسن والقوة فيه أيضاً . ولا يهمنا فى هذا المضمار الإتيان بالتعاريف والمفاهيم العامة . فهذه لا توضح الإنتاج الذى نحن بصدده فى قليل أو كثير ، إذ أنها لا تخدم وظيفة النقد . من هنا يعيب إليوت على بعض النقاد إسهابهم فى سرد النظريات النقدية وتماديهم فى شرح الأسس العامة ، وهذا مما يؤدى بدوره إلى إهمال العمل الفنى وبالتالى تضيع فرصة تقييمه ووضعه فى المكانة اللائقة به .

إن منهاج النقد منهاج عملى أكثر منه نظرى . ووظيفته لا تتأتى إلا بالسبل التطبيقية القائمة على الخبرة والمران الطويل فى مجال الكتابة الجيدة . وهنا يتعرض إليوت للاتجاه العملى الذى نادى به الدكتور رتشاردز مؤسس المدرسة السيكولوجية التحليلية للنقد فى كمبريدج . وفحوى هذا الاتجاه هو أن الإنتاج الفنى الجيد يترك فى نفس القارئ أثراً حميداً من شأنه جلب المتعة الفنية والشعور بالراحة والرضى كنتيجة لحالة التوازن التى يحس بها القارئ بعد استمتاعه الحقيقى بالعمل الفنى ، وهو توازن سيكولوجى منصب على الانفعالات والدافع التى كثيراً ما تتصارع وتتطاحن بعضها مع البعض الآخر . وغالباً يصحب هذا التوازن النفسى توازن عقلى ، فشمول الصحة النفسية عنصر هام وركن جوهرى فى نظرية

رتشاردز السيكولوجية . ولعل منهاجه العلمى هو الذى أعجب به إليوت ، بالإضافة إلى أسلوبه العملى فى النقد وطرحه لمجموعة من القصائد على طلبته بجامعة كمبريدج لنقدها ثم خروجه من هذه الانطباعات المتضمنة فى كتابه عن « النقد العملى »[1] بنتائج قيمة أفادت النقد الحديث أيما إفادة . ومؤداها هو أن النزوات الشخصية كثيراً ما تعرقل عملية النقد الصحيح وتطيح بكيان العمل الفنى . ذلك أنها تزج به داخل إطار ضيق مغلق تحدده الميول الذاتية والاتجاهات الفردية . وهذه النظرة الضيقة تسوقنا خارج طبيعة العمل الفنى الذى ينظر إليه رتشاردز على أنه مجموعة من التفاعلات والتركيبات المعقدة التى تحتاج من الناقد أو القارئ إحساساً عميقاً ووعياً ودراية وحذقاً قبل الإقدام على عملية التقييم . وهذه الأمور كلها غالباً لا تتوفر عند الكثيرين . ولهذا جاء نقدهم صدى لما تجيش به صدورهم مما أبعدهم عن محيط الموضوعية . ولهذا كانت فائدته محدودة للغاية إذ أنها مقصورة على بعض آراء شخصية لاتغنى ولا تسمن من جوع .

إن تربية الذوق الفنى السليم وهى إحدى الوظائف الهامة للنقد المتكامل عند إليوت لا تتأتى من وراء هذه النزوات . إذ أن هذه الحساسية تحيا فى رحاب الموضوعية ، وتتغذى على منابعها وأصولها الكلاسيكية . كما تستند إلى نظرتنا الرحبة إلى التقاليد . فهى التى تقويها وتدعمها وتشد من أزرها حينما نخطو بكلياتنا إلى المحيط الخضم للفنون والآداب . فنتلمس الماضى وقد تردد صداه فى حاضرنا وواقع حياتنا الراهنة . ونشق طريقنا وسط النصوص والنماذج المعقدة ، لنخرج منها بتراث غنى ملىء بالحولات الفكرية بقدر ما يشع من كل جنباته بالانفعالات والعواطف الحياشة .

إن هذا الثراء الفكرى والوجدانى هو ما أشاد به إليوت إذ اعتبره ركناً جوهرياً فى عمليات الخلق والتقييم أو الإبداع والنقد . وهذه العمليات بوجه عام لا يمكن

---

(١) *Practical Criticism.*

التعبير عنها فى إصالة إلا إذا صيغت فى قالب موضوعى يرتكز على التعادل التام بين الحقائق الخارجية والوجدان ، وهذا هو ما أطلق عليه إليوت اسم المعادل الموضوعى[١] الذى يمكن بواسطته تحقيق موضوعية العمل الفنى ، أى أنه بمعنى آخر غير نابع من المشاعر والأحاسيس المباشرة . ويعرّف إليوت هذه الناحية بقوله :

« إن السبيل الوحيد للتعبير عن الوجدان فى الفن هو إيجاد معادل موضوعى ؛ أو بعبارة أخرى ، إيجاد مجموعة من الأشياء ، أو موقف أو سلسلة من الأحداث لتصبح قاعدة لهذا الوجدان بنوع خاص ؛ حتى إذا ما اكتملت الحقائق الخارجية التى لابد وأن تنتهى إلى خبرة حسية ، تحقق الوجدان المراد إثارته »[٢].

هذا هو التعادل بين الموضوع والإحساس أو بين الحقائق والوجدان ، وهو ما وجده إليوت ناقصاً فى مسرحية « هاملت » لوليم شكسبير . إذ تقضى الحتمية الفنية بالتعادل التام بين هاتين الناحيتين ، وهو ما قصر عنه شكسبير فى هذه المسرحية دون سواها . فلقد سيطرت على هاملت الشاب عدة انفعالات كان من الصعب على شكسبير الإفصاح عنها إذ تنوء الحقائق بحملها ، وهذا مرده إلى طبيعة الحبكة الفنية لهذه المسرحية المعقدة .

ومن الجدير بالذكر أن غالبية النقاد قد اتخذوا هذه النظرية أساساً لنقدهم منذ ظهورها فى مقال لإليوت عن « هاملت » سنة ١٩١٩ حتى يومنا هذا ، فكانت بمثابة المبراس الذى ينقدون على هديه الأعمال الفنية العظيمة . كما أنها احتلت تدريجياً مكان الصدارة فى تقييم روائع الأدب ، مع أن إليوت لم يهدف

---

(١) "The Objective Correlative".

(٢) "The only way of expressing emotion in the form of art is by finding an 'objective correlative'; in other words, a set of objects, a situation, a chain of events which shall be the formula of that particular emotion; such that when the external facts, which must terminate in sensory experience, are given, the emotion is immediately evoked."

T.S. Eliot, "Hamlet", *Selected Essays*., ipid, b. 145.

يوماً ما أن يكون لهذه النظرية ذلك الصدى العميق فى محيط النقد الأدبى ، فلقد ذكرها عرضاً فى مجرى حديثه عن مسرحية شكسبير الخالدة .

وعلى أية حال فلقد تبلورت مهمة الناقد على ضوء هذه النظرية وهى انتقاء الجيد من التراث الذى تتحقق فيه العوامل السالفة . ولقد لعبت الخبرات الخارجية فى تفاعلها مع الإحساسات المرهفة دوراً كبيراً فى إعادة تقييم التراث الماضى . فتوجهت الأنظار نحو الأصالة الفكرية القائمة على مثل هذه التعادلية الموضوعية ، وأقيمت الموازنات وعقدت المقارنات بين النصوص قديمها وحديثها ، فبرزت خباياها . وتلألأت محاسنها بعد أن أدرك القوم السبل القويمة لفهم ومعرفة ما يقرأون مما أنتجته قرائح الماضى القريب والبعيد .

وأعقب هذه المقارنات قيام حركة تصنيفية تهدف إلى وضع الخبرات المتشابهة فى صعيد واحد حتى يسهل على القارئ الإلمام بها فى عجالة إن كان يهدف إلى النظرة الجشتالتية (أو الكلية) السريعة . وبهذا ظهر التراث الماضى فى ثوب جديد بعد أن سلطت عليه أضواء التعادلية والموضوعية والتقليدية من شتى الجوانب . ولم ينسنا بريق هذه الأضواء ما نحس به من متعة فنية وقد امتزجت تدريجاً بتفهم شامل للعمل الفنى من كل جوانبه وبخاصة الناحيتين الفكرية والعاطفية .

والنتيجة الطبيعية لكل ما تقدم هو ظهور أنماط فنية عديدة لكل منها طابعها الخاص الذى يختلف عما عداها . وقد انعكست هذه الأنماط على ميدان النقد فتأثر بها بقدر ما أثرت فيه . وإزاء هذا التبادل استفاد النقد فوائد لا تقدر ، إذ اتسع محيطه ، وعمق مداه . فتشعبت تياراته التى اختلطت بالموجات الفنية والفلسفية الحديثة . وعلى مر الأيام توارى الزبد الذى ذهب جفاء ، فاضمحلت الآراء التى تنم عن أفق ذاتى ضيق بعد أن أفسحت المجال للنظرة الموضوعية الرحبة التى تفاعلت مع تيارات الفكر الأوربى الحديث . وهذه النظرة الأخيرة هى التى تمثل خلاصة النقد المعاصر ، فلم يعد بمنأى عن الحياة الاجتماعية والفكرية

بل جزءاً من صلبها وعموداً من أعمدتها الراسخة التى ترتكز عليها صرح الحضارة .

وإلى عهد قريب اقتصر النقد الأدبى على تبيان مواطن الضعف والقوة فى التعبير . وجلاء العبارة أو غموضها ، ودقتها النحوية ، ومحسناتها اللفظية . واختيار كلماتها . وغير ذلك من الأمور التى تتصل بالصنعة اللفظية . لكنه بعد تبلور نظريات فرويد السيكولوجية خطا النقد خطوات واسعة فى سبيل البحث عن المؤثرات اللاشعورية إزاء العمل الفنى . ويقول إليوت فى هذا الصدد : « إن الدراسات السيكولوجية قد فتحت فى النقد الحديث آفاقاً لم يكن له عهد بها من قبل . » ويتضح لنا ذلك فى المنهاج السيكولوجى الذى اتبعه الدكتور رتشاردز والذى سبق الإشارة إليه .